2

الإبادة الثقافية والهنود الأمريكيون

obeikandl.com

obeikandl.com

إن الخلفية التاريخية النظرية لتناولنا للإبادة الثقافية هي الظاهرة العالمية للنزعة المحلية، إذ يعيش معظمنا حياته اليومية ضمن هذا الوضع الافتراضي، ويعرف بيئته ويفهمها على هذا النحو، وفي هذه الحالة التي سندرسها تعد الإبادة الثقافية المرتكبة ضد الهنود الأمريكيين، والبيئة المحلية المجهولة وقليلة السكان، إحدى المواجهات بين المستعمرين والهنود. إن الصور التي غُرست في أذهاننا في نطاق المواجهة هذه قد نشأت على خلفية السيطرة الاستعمارية للمنطقة ومقاومة الهنود لها. وبعيدًا عن هذه المنطقة، فإن فهم الصراع في جبهة المواجهة يتوافق مع النموذج الثقافي للجماعات المتنافسة. وسنبحث هنا بصورة أساسية وجهة نظر المستعمرين الأوروبيين، الذين ارتكبوا ودعموا الاعتداء على ثقافات الهنود الأمريكيين.

وصلت الغالبية العظمى من المستعمرين إلى الأمريكتين وهم متيقنون من تفوقهم الحضاري، وسرعان ما نشأ عن هذا المفهوم نظرة سلبية للمجتمع الهندي وثقافته، وقد ترسخت هذه النظرة سواء جاء الأوروبيون إلى العالم الجديد لأسباب دينية أو اقتصادية، وسواء جاؤوا من إنكلترا، أم من فرنسا، أم من إسبانيا، أم من هولندا، أم من السويد، أم من أي مكان آخر. من وجهة نظر المستعمرين فإن أسلحة الهنود، وأدواتهم، وديانـاتهم، وعريهم النسبي، ومهنهم، وحياتهم العائلية؛ كل ذلك كان متخلفًا، ولم تكن نظرتهم هذه قابلة للشك أو التساؤل، ويجب أن تبقى هذه الحقيقة الأساسية في أذهاننا خلال المرحلة التاريخية اللاحقة.

وهكذا، فقد كان يُنظر إلى الهنود، داخل هذه المنطقة وخارجها، على أنهم بربريون ومتوحشون، ويجب أن يفسحوا المجال للتوسع الاستعماري، الذي يمثل التقدم الحضاري المقدَّر من الله؛ إذ على المتخلف أن يُزاح من طريق الأعلى مرتبة وتقدمًا. وكان هذا الافتراض المنتشر، الذي أصبح بسرعة المفهوم الأساسي للمعتقد الجماعي الاستعماري، مستقلًّا عن سلوك هذه المجموعة أو تلك من الهنود أو المستعمرين، وغالبًا ما كان الرُّواد المستعمرون يسلكون سلوكًا بربريًّا (وقد اعترفت حكومة بريطانيا العظمى أو الولايات المتحدة بأنهم تصرفوا كذلك)، في حين تصرفت بعض المجموعات الهندية بطريقة مُتحضرة وسليمة، ولكن هذا الأمر لم يُحدث أي تغيير في طبيعة المعتقد الجماعي المتطور وقوته، الذي استخدم على الفور اللغة الانفعالية التي خاطبت الاهتمامات الراسخة بالأمن ضد الخطر، وللمحافظة على تماسك المجتمع.

نتيجة لذلك، صادق كل من وسائل إعلام المستعمرين (الصُّحف)، و(الخبراء الهنود) (غالبًا رجال الدين)، والسياسيين، على فكرة أن الهنود كانوا أعداء، وأن إبادتهم كانت مسوَّغة ولا مناص منها. كان ذلك يعني غمر المواطن الاستعماريُّ العادي خلف الحدود في بيئة إعلامية عكست ودعمت المعتقد الجماعي، وكان من المظاهر المهمة لهذه الحالة أن مجال المعرفة وحجمها حول الوضع في المنطقة، وحول الحياة والثقافة الهندية، كان سطحيًّا ومُعرَّضًا للتشويه. بالتأكيد لم يكن السماح للمستعمرين بإصدار حكم ناقد مستقل حول الصراع الحاصل بين شعبين كافيًا. إذا ما دمج المرء قوة المعتقد الجماعي، والقوة المتفوقة للمستعمرين؛ في السلاح، وفي الأعداد، على المدى الطويل، فإنه يستطيع إدراك أن وضع الهنود كان ضعيفًا إلى أبعد حد.

لم تكن المسألة تتعلق بإبادة الهنود، بل كانت كيف يُبادون؛ أيجب أن يكون ذلك من خلال عملية الإبادة الجسدية، أم من خلال عملية أكثر لطفًا، وهي الإبادة الثقافية؟

الاحتكاكات الأولى: مثلان لسابقتين

وصلت أول مجموعة كبيرة من المستوطنين الأوروبيين إلى شواطئ ما يعرف الآن بالولايات المتحدة في أوائل القرن السابع عشر، ومن بين أشهر المستوطنات الأولى كانت مستوطنة جيمس تاون التي أنشأتها شركة فيرجينيا في لندن عام 1607م. كان العدد الأولي للمستوطنين 105، وخلال سبعة أشهر بقي منهم 38 فقط، ولم تكن نسبة الموت الكبيرة في هذه الموجة الأولى بسبب الأعمال العدوانية من قبل أبناء البلد الأصليين، ولكن بسبب الملاريا التي عمَّت المستعمرة، وبسبب نقص الماء الصالح للشرب، والاستهانة بالعمل الشاق جدًّا الذي يجب ممارسته لاحتمال البيئة البرية المقفرة. في الحقيقة، لم يكن الشعب الأوروبي في فيرجينيا قادرًا على المحافظة على أعداده حتى نهاية القرن السابع عشر، وحتى ذلك الوقت كان عليهم الاعتماد على سيل المهاجرين الجدد الثابت (على هيئة خدم مستأجرين) فقط لتجنب الاندثار.

إن العلاقات بين الهنود المحليين (الباواتان- Powhatan) (الذين كان عددهم 40 ألفًا عندما أسست مستوطنة جيمس تاون)، كانت في البداية تقوم على المنافع المتبادلة؛ إذ احتاج المستوطنون في البداية إلى الطعام ليبقوا على قيد الحياة، واحتاج الهنود إلى الأدوات المعدنية، ومع ذلك فقد تدهورت العلاقات في النهاية؛ لأن أعداد المستعمرين استقرت وبدأت بالتزايد من خلال الهجرة، وتوسعوا في الأرض، وبذلك أكدوا النظرة الغربية للملكية الخاصة في الأرض، وتعدوا على مزيد من الأرض الهندية. وبوجود الاعتقاد السابق بأن المستعمرين متفوقون فقد تصرفوا غالبًا بطريقة تهدد وتؤذي جيرانهم الهنود (Puglisi 1991)، وسرعان ما عبَّر زعيم البواتان عن قناعته «بأن الإنكليز لم يأتوا للتجارة، ولكن للاعتداء على شعبي وامتلاك بلدي» (Vaughn 1978).

قادت العداوات إلى أول حرب بين الإنكليز والبواتان، وأسفرت مقاومة الهنود، وعمليات الانتقام من المستعمرين في عام 1622م، إلى سلسلة من المجازر بحق

المستوطنين الإنكليز التي قضت على ثلث سكان المستعمرة، إذ كان يبدو وكأن البواتان قد افترضوا أن ضربة قوية كهذه ستقنع الإنكليز بالتخلي عن المستعمرة برمتها، ولكن لم يرحل المستوطنون، بل تزايدت أعدادهم. وعقب الحرب، التي اجتهد فيها الإنكليز لتجويع الهنود؛ وذلك بتدمير حقول القمح والذرة، أجبر البواتان أن يتفاوضوا من أجل السلام، وقد لجأ قادة جيمس تاون في حفل السلام الرسمي إلى وضع السم في الشراب المُقدم لممثلي الهنود، وقتلوا 157 شخصًا منهم (Roundtree1996, 77)، وكانت تلك إشارة إلى أن النخبة من سكان جيمس تاون، على الأقل، يكرهون الهنود جدًّا، حتى إنهم لا يرون التعايش السلميَّ خيارًا حقيقيًّا، وبدا لهم أن الإبادة الجسدية هي الحل النهائي. ولكن هناك شك بأن البواتان كانوا سيسعون إلى نهاية مماثلة للمستعمرين، لو أنهم استطاعوا فعل ذلك.

كانت (المشكلة) بالنسبة إلى كلا الطرفين أن الإبادة الجسدية لم تكن سهلة التحقيق؛ فعندما اندلعت الحرب ثانيةً عام 1644م، قَتل البواتان خمسة آلاف مستعمر تقريبًا، وهو ما يمثل الآن أقل من 10 بالمئة من عدد السكان الإنكليز. لم يكن الهنود أقل تفوقًا بالسلاح فقط، بل بالعدد أيضًا؛ بسبب تدفق المهاجرين الأوروبيين المستمر. لقد تحول المستعمرون (اعتمادًا على منطقة الاستيطان) عن الإبادة الكلية من خلال الهواجس الدينية و/أو الحاجة إلى العمل، وكان الاستعباد (والإبعاد فيما بعد)، والتحول إلى المسيحية، حلولًا متنافسة بقوة لإبادة السكان الأصليين؛ فمنذ عام 1610م، أمر المديرون التنفيذيون لشركة فيرجينيا في لندن حاكم المستعمرة، السير توماس غيتس (Sir Thomas Gates)، بتنصير السكان الأصليين.

منذ منتصف أربعينيات القرن السابع عشر (1640م) فصاعدًا، عانى البواتان والمجموعات الهندية الأخرى في منطقة فيرجينيا، التدهور المستمر، وكان مصيرهم أن سيقوا كالقطعان إلى مناطق أصغر وأصغر، أو دحرهم إلى أقصى الغرب. أما الذين ظلوا ضمن مدى التواصل مع المستوطنين الإنكليز فقد تعرضوا لإبادة ثقافية شديدة لا رحمة فيها؛ من خلال إجبارهم على التحول إلى المسيحية، والتحشد

فيما يسمى (بلدات الصلاة الهندية)، أو المدارس الهندية الاستعمارية. وقد كانت مثل هذه العملية (الحضارية)- من وجهة النظر الاستعمارية- ستقلل مقاومة الاستيطان المستمر.

وفي أقصى الشمال، الذي صار يعرف بإنكلترا الجديدة (نيو إنجلاند)، وقعت اشتباكات مع السكان الأصليين لأسباب عديدة كالتي ذكرت في فيرجينيا. وقد جاء الحجاج إلى ماي فلاور (May Flower) في ديسمبر 1620م، وأسسوا مستعمرة بليموث (Playmouth)، وكان عددهم نحو مئة، ومرة أخرى مات نصفهم خلال السنة الأولى من الاستيطان، وكانت الأمراض- مثل داء الأسقربوط- من أكبر أسباب زيادة معدل الوفيات، وسرعان ما رُفِد الذين نجوا وعُزِّزوا من إنكلترا. وقد اتبع مستوطنو إنكلترا الجديدة طريقة أولئك الذين هم في أقصى الجنوب، وانتشروا خارج مركز مستوطنتهم، واعتدوا على مزيد من الأراضي التي كان الهنود الأصليون يستخدمونها للصيد، وجني قوتهم، وصيد السمك. وأقيمت مستوطنة تعرف اليوم باسم نيو هامبشير في العام 1623م، وأقيمت مستوطنة كونيكتيكت بحلول عام 1633م، ورود آيلاند في العام 1636م. وخلال هذه المدة، أنشأ الألمان أيضًا نيو أمستردام (التي أصبحت لاحقًا نيويورك)، وبعدها شرعوا بالتوسع باتجاه وادي هدسون. وجاء السويديون إلى ما يعرف الآن باسم ديلاوار، وبدأت عائلة كالفيرت (Calvert)، الذين هم من الإنكليز الكاثوليك، بإنشاء مستعمرة ماري لاند. وكان مصير بليموث أن ضُمت إلى مستعمرة خليج ماساشوستس. وبحلول العام 1642م كان في منطقة بليموث العامة قرابةُ 12 ألف أوروبيًّا. وكان تدفق المستوطنين أشبه بموجة كبيرة عاتية لا يمكن التحكم فيها.

حدث توتر في مستعمرة ماي فلور بسبب مواجهات مع الهنود المحليين خلال أول شتاء لهم، وبحلول فبراير 1621م أنشؤوا ميليشيا بقيادة مايلز ستانديش (Myles Standish). ومن جهتهم، جرى صدام بين هنود المنطقة الوامبانواغ والباتوكسيت مع صيادي الأسماك الإنكليز العاملين في الشاطئ، وقد عانوا هجمات عنيفة متفرقة،

بالإضافة إلى انتشار الأمراض الأوروبية مثل الجدري، ومن ثم فقد كانوا حذرين من مستوطني ماي فلور. ومع ذلك فقد عقدَ قام رئيس الوامبانواغ، ماساسويت، في مارس 1621م، وزعماء قبائل أخرى، اتفاقًا مع المستعمرين؛ يقضي بألا يقدِم أي منهم على أي عمل يؤذي الآخر، ومن الواضح أن المستوطنين لم يروا أن توسعهم (أي التوسع الحضاري) هو عمل مؤذ.

في بداية صيف 1622م، أسفر التوسع الاستيطاني الأوروبي عن أوضاع أدت إلى انهيار العلاقات السلمية بين الحجاج وجيرانهم الهنود؛ فقد أخبرت القاعدة الاستيطانية (الأمامية) في ويساغوسيت بليموث أنهم يتعرضون لتهديد الهنود المحليين، فقاد مايلز ستانديش (Myles Standish) فرقة للدفاع عن القاعدة الاستيطانية الأمامية، ولكنه سرعان ما علم أنه لم يحدث أي هجوم، وبدلًا من أن يبحث عن حلول سلمية لأي توترات يمكن حدوثها، ارتأى ستانديش أن الهنود المحليين لا بد أن يتعرضوا لمزيد من الخوف من المستوطنين، فعمد إلى ما نسميه اليوم (ضربة استباقية). وفقًا لرواية مؤرخ غزوة ستانديش، ناثانيل فيلبريك، فإن زعيم بليموث الشهير دعا اثنين من قادة الهنود المحليين إلى ويساغوسيت لتناول الطعام، وأدخلهم إلى إحدى الحجرات، وطعنهم حتى الموت (ربما لم يخطر بباله أن يسممهما). ويستنتج فيلبريك بشيء من الاستهانة، أن «هجوم ستانديش قد أحدث أضرارًا في علم البيئة البشرية للمنطقة بحيث لا يمكن إصلاحه» (Philbrick 2006, 151–155).

غادر كثير من الهنود المحليين المنطقة خوفًا من أعمال ستانديش، ولكن المستوطنين أدركوا متأخرين بأنهم لا يؤذون سوى أنفسهم بأعمالهم المتهورة؛ إذ كان مصدر الدخل الرئيس لمستوطنة بليموث في ذلك الوقت هو من تجارة الفراء، وبانسحاب عديد من الهنود المحليين جف مصدر تجارة الفراء بسرعة.

وقع قتال متقطع خلال الخمسين سنة التالية، وفي هذه المرة ساعد الإنكليزَ تفشي المرض بين أعدائهم الهنود، وكانت تبدو تلك الأمور وكأنها من فعل الإله؛ فبالعودة

إلى إحدى حلقات تلك الأحداث حينذاك، نجد أن المبشر إنكريز ماثر يقول، في عام 1631م، إن المشكلات التي كانت قائمة مع السكان المحليين (الشرسين) قد انتهت «بإفشاء الإله مرض الجدري بين هنود ساغوستا» (Thorton 1990, 75). لقد كانت ذروة الصراع الهندي-البيوريتاني هي حرب الملك فيليب التي بدأت في العام 1675م؛ وكان السبب العام لها هو أيضًا توسع المستوطنين الإنكليز ثانية في الأرض الهندية. وقد استخدمت القوة لإرغام هنود الوامبانواغ المحليين على بيع بعض أراضيهم لمدينة سوانسا الإنكليزية الجديدة (Kawashima 1986, 205–224). وقد مات نحو 8 بالمئة من السكان الإنكليز البالغين خلال الصراع الدائر، ولكن هذه الخسارة لا تُقارن بخسائر الهنود، إذ قُدرت خسائر الهنود البشرية في منطقة إنكلترا الجديدة كلها بـ 60 إلى 80 بالمئة تقريبًا (Philbrick 2006, 332, 345–346).

كانت خبرات الهنود والأمريكيين الذين احتكوا بسكان مستعمرتي جيمس تاون وبليموث نموذجًا للمجموعات الهندية الأخرى، ليس فقط خلال هذه المرحلة المبكرة نسبيًّا، ولكن أيضًا خلال السنين اللاحقة، وقد أثبت التوسع الاستعماري أن الاحتكاك قاد إلى توتر وأحقاد عميقة، وكانت النتيجة هي الهزيمة الهندية والتطهير العرقي. ونتيجة لذلك كان عدد القرى الأمريكية في المناطق المتاخمة لنهر تشي سابيك وخليج ماساشوستس صغيرًا، وقُدِّر بـ 1700، ولكن العنف الذي استتبع تصفية الهنود خَلَق- كما سنرى- تلك الصورة الراسخة في أذهان المستعمرين المسيطرين.

النزعة المحلية والصورة المتطورة للهنود

بحلول عام 1700م كانت الحدود الأمريكية قد بدأت بالتراجع باتجاه الغرب، وبانتهاء القرن أخذ احتمال مواجهة السكان الأوروبيين في منطقة الساحل الشرقي للهنود يتضاءل باستمرار. وكتب جون آدمز، الرئيس الثاني للولايات المتحدة، في 28 يونيو 1812م، إلى توماس جيفرسون، الذي سيصبح خلفًا له، أن والده كانت له لقاءات متكررة قبل سبعين سنة (عام 1742م تقريبًا) مع اثنين بارزين من الهنود

المعروفين في قبيلة نيبونسيت (Neponset) التي نجت من الإبادة، وكانا يزوران منزل آدمز الواقع فيما يعرف الآن بكوينسي (Quincy)، ماساتشوستس (وهي جزء من منطقة بوسطن الكبرى). ولكن الآن، في عام 1812م، يلاحظ آدمز أنه «لم ينجُ أحد منهم؛ فإننا لا نكاد نرى هنديًّا واحدًا في العام» (Cappon 1959, 310–311).

كتب رالف والدو إميرسون (Ralph Waldo Emerson) في صحيفته عام 1845م، قائلًا: «إننا في ماساتشوستس نرى الهنود فقط وكأنهم أثر تاريخي جميل» (Dippie, 1982, 32). والحقيقة أن الهنود كانوا دائمًا ظاهرة حدودية؛ فكلما ابتعد المرء عن منطقة الهنود في غرب أمريكا انزلق الهنود الأمريكيون في ساحة الغموض والنسيان أكثر؛ لأنهم لم يعودوا جزءًا من الحقيقة المحلية للشخص التقليدي، ومن ثم لم يعد يفكر فيهم أحد يوميًّا، وعندما يدخلون حيز الوعي، فإنما يكون ذلك من خلال (الأخبار المُوجهة).

كيف كان الهندي يُصوّر لـ (الرجل الأبيض) الذي يعيش شرقي الحدود ؟ كانت مصادر المعلومات للمستعمر الأمريكي العادي هي الصحف، والأدب، والتصريحات العلنية لهؤلاء الرجال البيض الذين يقدمون أنفسهم على أنهم (خبراء). وشملت الصور المقدمة الموضوعَ الشامل لزوال الهنود المحتوم؛ أي إن الهنود كانوا يختفون بفضل المصير المقدر لهم، وقد صاغ هذه الصورة أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكي بطريقة شعرية عام 1825م، كالآتي: «مثلهم مثل اللسان البحري الرملي، المُعرَّض لهجمات المحيط المستمرة، يتآكلون رويدًا رويدًا أمام تيار السكان البيض»، وقد جسَّد ذلك «المصير المحتوم لأسلافنا البدائيين القدماء، وإبادتهم المقدرة قبل انبلاج فجر العلم والتثقيف».

اختلف الرأي الشعبي حول كيفية إحداث الإبادة المقدرة على الهنود الأمريكيين باختلاف الأوضاع على أي حال، وهكذا، وفقًا لما ورد في كتاب بريان دبليو ديبي (Brian W. Dippie) الرائع: **الأمريكيون المتلاشون: مواقف البيض والسياسة**

الهندية الأمريكية، كانت نظرة القرن الثامن عشر حول هذا الموضوع متأثرة في البداية بالفكر التنويري الذي فضَّل الاعتقاد القائل بأنه كان على الثقافة الأوروبية أن تستوعب مصير الهنود. كان يمكن أن تحدث عملية الإبادة الثقافية غير الخطرة بتحويل الهنود مبدئيًّا، الذين كان يُزعم أنهم صيادون برابرة، إلى مزارعين و/أو سكان مدن. إن حقيقة كون عديد من الهنود الذين اصطدموا بمستوطني بليموث وجيمس تاون كانوا مزارعين غير متفرغين، عاشوا في قرى تشبه البلدات الصغيرة، كانت قد غابت عن الأذهان تمامًا. وقد نسب ديبي هذا الافتراض الاستيعابي إلى التأثر السائد بنظرية اللوح الفارغ (الصفحة البيضاء) الدماغية (Tabula rasa)[1] لجون لوك؛ وهذا يعني أننا نولد جميعًا مثل اللوح الفارغ، ومُتساوين جوهريًّا، فلا يوجد عند الولادة اختلاف فطري متأصل بين الطفل الهندي والطفل الذي قُدر له أن يكون ملك إنكلترا، وما يجعلهم مُختلفين هو خبرتهم اللاحقة. ومن ثم فإن إحداث تغيير في خبرات الهنود الأمريكيين يؤدي إلى تغير الهندي إلى شيء آخر، وقد عبَّر توماس جيفرسون، الذي تكوَّنت آراؤه بفضل الفكر التنويري، عن الرأي القائل بأن الهنود يمكن أن (يتطوروا إلى الأحسن)، ويمكن أن يدخلوا، في النهاية، إلى (الحضارة).

في هذه الأثناء كان الهنود في منطقتهم في غرب أمريكا يقاومون بعناء وبعنف الاعتداء الاستعماري، وقد كان الأمر كذلك على الرغم من أن جيفرسون، وكذلك- بلا شك- معظم البيض الذين يراقبون الأمر بعيدًا عن منطقة الهنود، قد فهموا أن خسارة الهنود للأرض تعود إلى (بيع القبائل الطوعي) لأراضيهم (Dippie, 1982, 33). ومع ذلك، فقد كانت هزيمة القبائل الهندية في معركة فولن تيمبرز (Fallen Timbers) في عام 1797م هي سبب خسارتهم لأراضيهم شمال وغرب نهر أوهايو (Ohio). وأدى الضغط الذي مورس على قبائل التشيروكي (Cherokees)،

1. Tabula rasa: نظرية تعني أن العقل البشري يكون عند الولادة (لوحًا فارغًا)، وأن المعلومات تضاف من خلال خبرات الفرد.

والتشيكاساوا (Chickasaws)، والكريك (Creeks) إلى خسارة الأراضي في منطقة تنيسي (Tennessee) وجورجيا (Georgia)، وقد فسر جيفرسون هذا أيضًا على أنه قدر: «فبينما يحاول الهنود أن يُبلوا بلاء حسنًا (بصفتهم مزارعين) في عدد قليل من الأراضي، فإن أعدادنا المتزايدة تستلزم عددًا أكبر من الأراضي، ومن ثم يسفر ذلك عن تطابق في المصالح بين هؤلاء الذين يملكون الأراضي الفائضة، التي تحتاج إلى متطلبات أخرى، وهؤلاء الذين يملكون فائضًا من هذه المتطلبات، ويحتاجون إلى الأراضي»(Dippie, 1982, 5).

لم يكن جيفرسون- من دون شك- يسكن في منطقة الهنود، ويمكننا أن نفترض أن المواقف الاستعمارية كانت تتغير كلما اقترب المرء من منطقة المقاومة، وقد حدثت الآن عملية جَعل مواقف هذه المنطقة الهندية شائعة بين أولئك القاطنين خلف حدودها، فعلى سبيل المثال في السنين الأولى من الحرب الهندية الفرنسية (1754–1755م)، استمرت الصحف الاستعمارية تنشر فيضًا من التقارير المستمرة حول هجمات الهنود في منطقتين، وقد كانت متخمة بوصف التعذيب والأعمال الوحشية. ووفقًا لهذه التقارير، أبعد الفرنسيون السيئون الهنود في مثل هذه المناطق، مثل بنسلفانيا الغربية، عن الصداقة مع المستعمرين البريطانيين المعتدلين، وكانت النتيجة المتوقعة هي أن «قصص الصحف حول الحرب سببت خوفًا غير مسوَّغ كليًّا لكل من الفرنسيين والهنود»، ومن جهة أخرى وُصفت القوات الإنكليزية للقارئ الاستعماري على أنها نسخة القرن الثامن عشر من (مقاتلي الحرية) (Copeland 1997, 6)، وبذلك أدت طريقة الصحف هذه في نشر الدعاية الحربية إلى تصوير هنود المنطقة الغربية على أنهم عدو فاسد متوحش لا يمكن إصلاحه، يتجه شرقًا إلى مناطق كان فيها الهنود الأمريكيون غائبين عن الحياة الاستعمارية اليومية، وأدت كذلك إلى تآكل الموقف الداعي إلى استيعاب الهنود وإمكان جعلهم أفضل، وقد تكرر هذا الوصف السلبي للهنود في زمن الثورة الأمريكية، وفي حرب عام 1812م.

خلال الحرب الهندية الفرنسية كان من المنطقي بالنسبة إلى معظم الهنود أن يميلوا نحو الجانب الفرنسي؛ إذ لم يستقر الفرنسيون بأعداد كبيرة في العالم الجديد كما فعل المستعمرون الإنكليز، وهكذا لم يمثِّل الفرنسيون ضغطًا على منطقة الهنود الغربية كالذي كان يمارسه الإنكليز، فضلًا عن أن الهنود الناجين في شرق نهر الميسيسبي قاتلوا، خلال الثورة وخلال حرب عام 1812م، مع البريطانيين ضد الأمريكيين، وقد كان ذلك منطقيًّا أيضًا؛ لأن الحكومة البريطانية لم تعد الآن مرتبطة بمنطقة الهنود، كما كان المستوطنون الأمريكيون مرتبطين بها ارتباطًا شديدًا.

على الرغم من أن الاختيار الهندي لحلفائهم كان منطقيًّا، فقد جعلهم ذلك من المنظور الأمريكي عدوًا لسنوات كثيرة قادمة؛ لقد تكرر الآن وصف الهنود من أبناء المنطقة الغربية على أنهم (متوحشون دمويون) بدلًا من وصفهم بـ(متوحشين نبلاء) في جميع الصحف المحلية، والمنابر، والمنصات السياسية، وصولًا إلى الرئيس جيمس ماديسون، الذي أعلن أنه على الرغم من السياسة (العادلة والكريمة) تجاه الهنود، فقد قابل الرجل الأحمر مستوطني المنطقة الهندية «بالتعطش الوحشي للدم»، «وممارسة التعذيب والقتل ضد الأسرى المشوهين العاجزين عن الدفاع عن أنفسهم» (Dippie, 1982, 6).

يجب التأكيد أن معظم الذين يصوغون الأخبار، بالإضافة إلى الرئيس، لم يلحظوا أنهم يشوهون الحقائق، وقد تكوَّنت مداركهم بفضل المبدأ الثقافي الذي- كما لوحظ- يصور البيض على أنهم ممثلو الحضارة، بل وممثلو الإله؛ فقد كان المستعمرون، بحسب هذا الوصف، أناسًا طيبين، وكان الهنود يمثلون البربرية ووكلاءها؛ لقد كانوا سيئين وميئوسًا منهم. وهكذا فخلال محادثات السلام التي أنهت حرب 1812م، أخبر الممثل البريطاني المفاوضين الأمريكيين أن تقرير حكومتهم حول العلاقات مع هنود المنطقة الغربية قد تجاهل كليًّا حق الهنود في الأرض، «وهو ما يمثِّل تهديدًا بإبادة تلك الشعوب»، وذُكر أن الأمريكيين عدُّوا ذلك إهانة لهم؛ إذ صرحوا بأنهم

لم يهددوا مصير الهنود، بل كانت السياسة الأمريكية دائمًا «إنسانية ومتسامحة» (Nash 1974, 62 and 126)؛ لقد كانت دائمًا سياسة متحضرة.

نتيجة لهذا الفهم لسلوك الهنود، فقد تزايدت أعداد الأمريكيين الذين لم يروا في سياسة جيفرسون الداعية لاستيعاب الهنود، بعد حرب 1812م حلًّا لمشكلتهم. وفي الحقيقة فقد كان موقف جيفرسون يعتمد دائمًا على الافتراض غير الصحيح بأن الهنود سوف يبادلون، طوعًا، الفائض المزعوم من أراضيهم بما يزيد على حاجة البيض من الحلي والأدوات.وعندما تبين أن الأمر ليس كذلك تحول مواطنوه إلى النقيض، ووصلوا إلى أن الهنود متوحشون بالفطرة، «وفاسدون منذ الولادة». وقد انتشر هذا الرأي خلال القرن التاسع عشر، وعزز التصور بأن قدَر الهنود هو الزوال، حتى إن عددًا كبيرًا من الروايات حول الهنود الأمريكيين، التي نُشرت في القرن التاسع عشر، ومن ضمنها تلك التي كتبها جيمس فينمور كوبر (James Fenimore Cooper)، جميعها كانت ترى أن إبادة الهنود جسديًّا هو قدرهم المحتوم. وسيتحدى هذا الحلم الشائع تلك القلة ممن سعوا إلى تعزيز الأساليب (الإنسانية والليبرالية)، مثل تحول الهنود إلى مزارعين مسيحيين طيبين تابعين، ومن ثم إنقاذهم من الإبادة الجسدية من خلال الإبادة الثقافية، بيد أن الهنود رفضوا الوسيلتين.

كيف يتلاشى الأمريكي المتلاشي؟

هكذا طور الرجال والنساء البيض في أنحاء المستعمرات، ثم في الولايات المتحدة، معتقدًا جماعيًّا تجاه الهنود؛ أي إنه بحلول عام 1815م تكوَّنت صورٌ مماثلة للهنود بين السكان المحليين، والإقليميين، والقوميين. ولابد من أن نتذكر دائمًا أنه بمرور الزمن لم يكن لدى الأمريكيين معرفة مباشرة بالهنود. وقد كانت صياغة الأخبار عن الهنود من خلال وسائل الإعلام المتنوعة، التي تداولتها الغالبية العظمى لأكثر من قرن، متناسقةً، وغالبًا ما كانت سلبية. لقد كانت أخبار السلالة البربرية المتلاشية كافية لتخدير ضمير المستمعين، وجعل تصور الاندثار المحتوم للهنود «طريقة تفكير

مألوفة» (Dippie, 1982, 15). بمجرد تطبيق هذه النظرة المشتركة، تولدت نزعة طبيعية لتعزيزها من خلال البحث عن المعلومات التي تدعمها. وقد أُهملت الحقائق المناقضة لهذا التصور أو جرى التقليل من أهميتها. لهذا فقد نُبِذَتْ في العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر (1820–1830م) فكرةُ تكيُّف هنود التشيروكي وتأقلمهم الناجح مع الزراعة والمظاهر الأخرى لحضارة الرجل الأبيض (فقد كانوا تواقين لتعلم الإنكليزية حتى لا يتمكن البيض من خداعهم). لقد طمع البيض بأرض التشيروكيين، وسهَّل اعتناق صورةِ وحشيةِ الهنود، التي كانت أساسية في إطار المعتقد الجماعي، عملية سرقة الأرض، وكانت تلك ذريعة فكرية نموذجية بطريقة أو بأخرى.

غالبًا ما يغير المعتقد الجماعي الصور النمطية والادعاءات غير الخاضعة للتحليل إلى افتراضات حقيقية راسخة، وقد انطبق ذلك على تصور الأمريكيين البيض للهنود في القرن السابع عشر لغاية القرن التاسع عشر؛ بحيث إن هذه العملية جعلت فكرة استمرار حرب الإبادة- نتيجة لذلك- أمرًا مقبولًا.

كان أحدُ تلك المسوِّغات الأساسية هو أن الشخصية المثلومة للهنود الأمريكيين كانت مصدر هلاكهم؛ فقد كانوا يمارسون الانتحار العنصري من خلال تعاطي المشروبات الروحية حتى الموت، وبسبب التقاط عدوى أمراض العالم القديم (التي كانت إشارة إلى تخلفهم)، وبسبب ثقافتهم العدوانية. وقبل كل هذا، كانوا يقتلون أنفسهم بسبب عدم قدرتهم على (التحضر).

قُدِّر على الهنود الاندثار على يد حضارة الرجل الأبيض الأقوى، وكُتب عليهم الانهيار أمام (التقدم)، تمامًا كما انهارت مواطنهم السهلية والحرجية. وعلاوة على ذلك، ظلت تلك الحضارة تثبت في كل مرة يتواصل فيها الهندي معها أنها فتاكة بالنسبة إليه، وقد عبَّر جيمس فينمور كوبر (James Fenimore Cooper) عن هذا بقوله: «باختلاط الهنود بنا... يمتصون رذائلنا، من غير أن يحاكوا فضائلنا، كما أن

تواصلنا معهم كان مؤذيًا لهم» (Dippie, 1982, 25)، وقد وافق موظفو الحكومة على هذا التحليل. أما الرئيس جيمس مونرو (James Monroe) فعبَّر عن الأمر على النحو الآتي: «لقد أثبتت التجربة بوضوح أن المجتمعات الهمجية المستقلة لا تعيش طويلًا ضمن إطار المجتمع المتحضر...، وبالتضييق عليهم من كل ناحية من قبل السكان البيض فإنهم يتحولون إلى مدمنين على الخمور، أو يقعون فريسة أمراض الرجل الأبيض». (Dippie, 1982, 48).

لذلك، ولمصلحة الهنود، ولإنقاذهم من الاندثار المحتوم أطول مدة ممكنة، كان يجب أن يُعزلوا عن مجتمع البيض، والطريقة الوحيدة لفعل ذلك هي تجريدهم مما تبقى لهم من أراضيهم الموروثة، وإجلاؤهم إلى مكان ما وراء الحدود التي تزداد اتساعًا باستمرار. وكما قال الخبير في الشأن الهندي هنري سكول كرافت في عام 1838م (Henry School craft): «أصبح من الواضح للجميع أن خلاص ما تبقى من هذه الأجناس الشرقية المثيرة للاهتمام يكمن في الاستيطان غربًا... فقد ساد شعور عام في تلك الأرض، فرضته سياسة سليمة، وكانت معظم الأعمال الخيرية الموسعة والمقدمة للعرق الهندي باعتدال إلى حد ما» (Dippie, 1982, 48). كان ذلك جزءًا من نموذج المعتقد الجماعي الذي أخلى الرجل الأبيض المتحضر من مسؤوليته تجاه الهنود، وألقى اللوم كله على ضحيته.

من اللافت ملاحظة أن كثيرين، ممن هم داخل الحكومة الأمريكية وخارجها، يعلمون أن توسع مجتمعهم كان إبادة للهنود، قد سعوا إلى استثمار الوقت الذي تبقى لتلك الشعوب المنكوبة في مشروع تخليدهم من خلال الفن، وقد كانت هذه- على ما يبدو- هي مهمة الرسام جورج كاتلين (George Catlin) (1796–1872م) الذي سعى من خلال الرسم إلى تأريخ الهندي «غير الملوث» الذي يعيش إلى الآن بعيدًا عن سطوة استيطان البيض. وقد فعل ذلك وهو على يقين بأن هؤلاء الهنود لن يستطيعوا تجنب «الزحف الكبير للحضارة الذي لا يمكن مقاومته»، وأن يظلوا «غير

فاسدين» (Catlin, 1973, 1:156)، ووصف مهمته بأنها «نصب تذكاري لعرق زائل» (Roehm 1966, 442).

في أثناء مهمته، زار الرسام 48 قبيلة مختلفة، ورسم نحو 470 لوحة، وعلى كل حال لم تكن تلك مجرد مهمة أنجزها أحد المتعاطفين مع الهنود الأمريكيين، بل كانت أيضًا جزءًا من الممارسة الحمقاء التي اتبعتها الحكومة الأمريكية، وخاصة وزارة الحربية. في بداية العشرينيات من القرن التاسع عشر، تابعت الوزارة ذاتها التي تولت مهمة طرد الهنود وعزلهم عملية جمع عدد كبير من رسومات ضحاياها؛ من أجل أن تكون قادرة على الإجابة عن السؤال المستقبلي، الذي عبَّر عنه وزير الحربية جيمس باربر: «أي إنسان كان الهندي الأمريكي الأحمر؟».

كل ذلك كان ممكنًا لأن المعتقد الجماعي السائد حول الأمريكيين البيض ربط توسعهم على امتداد القارة بالتقدم والرقي، وأن هذا التوسع محتوم ولا يمكن مقاومته، وكان الأمر كذلك في الواقع؛ لأنه كان مُقدَّرًا من الإله، وقد عبر المندوب الأمريكي ريتشارد وايلد خلال الجلسة 21 في الكونغرس من العام 1829م، عن ذلك بقوله: سيظل يعقوب يجني ميراث عيسو[1]، ولا يمكننا تبديل قوانين العناية الإلهية، كما نراها في تجارب العصور[2] (وينبرغ 85، 1963). أوضحت التوراة أن الأرض لمن (يعمرها)، وقد كان قدر الأمريكيين الواضح أن يفعلوا ذلك. وقد أوضح الأستاذ ذو النفوذ في جامعة هارفارد، إدوارد إيفيرت (Edward Everett)، في عام 1823م، ما يأتي: «جاء الأوروبيون – ولأسباب بسيطة وطبيعية وببراءة– استبدل بالسكان البربريين... أناسٌ أفضل منهم وأكثر سعادة». لذلك فقد كان هلاكهم نتاج عملية لا

1. عيسو: ابن إسحق الأكبر كما ورد في التوراة.
2. جاء في سفر التكوين وَلَدَ لإسحاق ورفقة: عيسو ويعقوب بعد 20 سنة زواج، حيث كان عمر إسحاق 60 سنة، وكان عمر إبراهيم 160 سنة. يختلف يعقوب عن أخيه عيسو بالمظهر والتصرفات؛ عيسو كان صيادًا، بينما كان يعقوب رجلًا يسكن الخيام، أما قصة صراع الأخوين فطويلة وفيها كثير من الخرافات، وقد أراد وايلد أن يقول إن الصراع بين البشر لا ينتهي كما أراد الله. المراجع.

يمكن تجنبها لأسباب طبيعية. إنه لأمر مذهل كيف استطاع الرجل المتحضر التخلي عن إرادته الحرة عندما أصبح ذلك الأمر لمصلحته.

وفي ظل هذه الأوضاع، أصبح نقل الهنود وعزلهم سياسة رسمية لحكومة الولايات المتحدة بعد عام 1812م، وربما كانت تلك فكرة بديلة عن الإبادة الجسدية.

ولكن هذا الافتراض- من خلال الحالة التي شُرحت سابقًا- ربما يكون مجرد ذريعة سيكولوجية؛ لأنه إذا كان التوسع الحضاري أمرًا محتومًا، وكان الهنود غير قادرين على التكيف، فستكون الإبادة المحتملة للسلالة نتيجة منطقية. ومع هذا كان هناك دائمًا قلة يؤمنون بوجود خيارات بديلة، فيمكن إنقاذ الهنود من الإبادة الجسدية بنقل بعضهم على الأقل، وبصورة فردية، إلى قوم متحضرين، وكذلك فإن إعادة تعليم الشبان القابلين لذلك، وتنصيرهم، يمكن أن ينقذ بعضًا من الهنود المختارين، ولذلك، فإن الإبادة الثقافية كانت بديلًا مُمكنًا ومُفضلًا عن الإبادة الجسدية.

تعليم الهنود وتنصيرهم

كما لاحظنا، فإن معظم الأمريكيين عاشوا بعيدًا عن الحدود، ولم يشهدوا سلوك مواطنيهم الذي دفع الهنود إلى المقاومة الشرسة، وقد كان هناك بالتأكيد- كما ذكر أحد التقارير الحكومية عام 1867م- عدد محدود اعتقدوا بأنه «عندما يُعرض التاريخ الحقيقي لأخطاء الهنود أمام مواطنينا، فإن صوتهم الموحد سوف ينادي بأنه يجب عدم التضحية بشرف ومصالح الأمة لإشباع نهم وجشع البيض المجردين من المبادئ الأخلاقية» (Tinker, 1993, 106). على أي حال، كان من الصواب في ذلك الوقت استنكار الجشع؛ إذ إن سياسات التهجير والاقتلاع من الأرض قد استكملت ولم تترك (أي إغراءات أخرى) (Weinberg 1963, 85). في غضون ذلك، قَبِل الأمريكيون الأخبار النمطية الموجهة التي تعزو شراسة الهنود إلى شخصيتهم البربرية بالفطرة على أنها حقيقة، كانت هذه النتيجة محصلة لافتقار أكثرية البيض

إلى المعرفة البيئية الدقيقة حول وضع الهنود. إن حقيقة أن الأكثرية الاستعمارية لم تكن على علم بما كان يفعله مواطنوهم بالمنطقة الغربية بالهنود (وهو جهل لا يزال يعانيه الأمريكيون عندما يتعلق الأمر بسياستهم الخارجية الحديثة)، هي ما أتاح لمعظم الأمريكيين، ابتداءً من الرئيس ونزولًا إلى مستوى المواطن العادي، بأن يؤمنوا حتمًا بأن سياسة الحكومة تجاه الهنود كانت (إنسانية ومتساهلة). وقد كان عزل الهنود وطردهم باتجاه الغرب من أجل مصلحتهم جزءًا من هذه السياسة، كما أن تشجيع الأعمال التبشيرية والتعليم بين هؤلاء المتوحشين الذين أُجْلُوا بسلام (على الرغم من هشاشة هذا الادعاء)، كان جزءًا آخرَ من هذه السياسة.

في وقت سابق في القرن السابع عشر، أنشأ المبشرون البروتستانتيون أربع عشرة بلدة من (بلدات الصلاة) للهنود المقيمين في الأدغال، وتعلَّم قرابة 1100 هندي أركان الدين المسيحي، وعادات الصناعة (والزراعة)، واللغة الإنكليزية. وقد دمِّرت معظم هذه البلدات خلال حرب الملك فيليب (1675–1676م)، والصدامات الأخرى بين الأوروبيين والهنود المحليين. خلال هذه المدة تُرجم الإنجيل إلى عدد من اللهجات الهندية، وقد حققوا نجاحًا محدودًا في تدريب بعض الهنود ليصبحوا مبشرين مسيحيين (Reyhner and Eder 2004, 26–27). وقد استمرت الجهود المبذولة حتى القرن الثامن عشر والتاسع عشر، مُركزة الآن على أطفال الهنود، (وقد حثهم على ذلك الصحوة العظمى الثانية)، فعلى سبيل المثال شجع المبشر إليعازار ويلوك (Eleazar Wheelock) نقل أطفال الهنود من كلا الجنسين إلى مدرسة مور الخيرية الهندية في بلدة لبنان، في ولاية كونكتيكت، إذ كان مهتمًّا بالحفاظ على الأرواح الهندية، ولكنه كان حكيمًا بما يكفي ليقيم الحجة والدليل على أن «المبشرين ومديري المدارس كانوا أقل تكلفة من الحصون والقلاع والحروب» (Reyhner and Eder 2004, 31). على أي حال لم يكن سجل الإنجازات جيدًا؛ فقد كتب ويلوك قُرب دنو أجله: «لقد حَوَّلتُ 40 هنديًّا إلى قراء وكتَّاب جيدين، في الدين

المسيحي... وبالاحتكاك مع رذائل قبائلهم، نجد أن أكثر من نصفهم قد حافظوا على شخصياتهم كما هي» (Layman 1942, 92).

ومع نهاية القرن الثامن عشر، وبعد استقلال أمريكا، أعلن الكونغرس ما يأتي: «يجب مراعاة أفضل النيات الحسنة تجاه الهنود، ويجب ألا تُنتزع منهم أراضيهم وممتلكاتهم من غير موافقتهم، ويجب عدم انتهاك أو إفساد ممتلكاتهم، وحقوقهم، وحريتهم، ويجب ألا يُغزَوا إلا في حالات الحروب القانونية والعادلة المصرح بها من قبل الكونغرس». وفي الحقيقة، فقد حث الرئيس جورج واشنطن في خطابه السنوي الرابع للكونغرس عام 1792م، المشرعين لتقديم اعتمادات كافية لتنفيذ القوانين في المنطقة الهندية الغربية، ومن ثم «منع الاعتداء على الهنود» (Reyhner and Eder 2004, 41)، ولما كانت هذه الرسالة مخالفة للمعتقد الجماعي السائد، فقد أخبرنا التاريخ أن الالتزام بهذه المحاولة لم يكن كما يجب.

أَحبط هذا التراخي- ولكنه لم يوقف- الأقليةَ من البيض في القرن التاسع عشر الذين ما زالوا يؤمنون بما عبَّر عنه المبشر جديدا مورسي (Jedidiah Morse) عام 1820م، من أنه «لا بد من اتخاذ الإجراءات الفاعلة لدفع الهنود إلى هذه الهاوية الفظيعة، إلى أرضية الحضارة الصلبة والآمنة» (Morse, 1822, 66)، وهذا يعني- بلا ريب- أنه يجب على الهنود أن يصبحوا (متدينين)، أو عمالًا زراعيين، أو أي شيء آخر يختلف برمته عما كانوا عليه أصلًا. من خلال هذه المحاولة، ستبقى مبادئ (الدين المسيحي) متمازجة مع تطوير (الفنون النافعة)؛ مثل زراعة الأرض والفلاحة، ولهذه الغاية بدأ المبشرون البروتستانتيون في بداية القرن التاسع عشر بإنشاء (كنائس نموذجية) في المناطق الهندية، وقد كانت مدارسَ داخليةً للعمل اليدوي، يمكن أن يسكن فيها الأطفال الهنود، ويتنصروا، ويصبحوا مزارعين متحررين من (تأثير آبائهم الوثنيين) (Reyhner and Eder 2004, 50).

كانت الرغبة في الحصول على ممتلكات خاصة من أحد المفاهيم التي كان يجب غرسها في أذهان هؤلاء الأطفال، وقد قال لويس هنري مورغان

(Lewis Henry Morgan) لزملائه، وهو متخصص أمريكي مهم في علم الأجناس البشرية، (وخبير) رائد بشأن الهنود في منتصف القرن التاسع عشر: «إنه من غير الممكن أن نغالي في تقدير تأثير الممتلكات في حضارة الجنس البشري»، وإن الوصول إلى الملكية الخاصة لديه «قوة لا يمكن تصورها» للانطلاق بسرعة بعملية تحضير الهنود؛ لأن «هيمنة الملكية بوصفها عاطفةً تفوق كل المشاعر تعد بدء انطلاق الحضارة» (Morgan, 1877, 3– 8). وعلى حد تعبير بريان ديبي، فإن التوجه نحو الملكية الخاصة، وبالتحديد ملكية الأراضي، كان يبدو وكأنه طريقة «تشتيت المجموعات القبلية الموجودة» (Dippie, 1982, 111)، وقد كانت هذه المجموعات– من دون شك– هي التي اعتمدت عليها مقاومة انتهاكات البيض.

مثَّل المبشرون مجموعة ضغط على الحكومة الأمريكية، وفي عام 1818م لاحظت لجنة مجلس النواب أن «هناك أمرين يبدوان ضروريين في الوضع الراهن لبلادنا: إما أن نهذب أبناء الغابات أخلاقيًّا، أو نبيدهم» (Prucha 1984, 150)، وقد اختارت الحكومة– تحت ضغط المبشرين– أن تجرب الخيار الأول؛ ففي عام 1819م أصدر الرئيس مونرو قانون الحضارة الهندية، الذي يعطي منحة سنوية قيمتها 10.000 دولار أمريكي لتقديم كل ما يلزم للمؤسسات العاملة على تحضير الهنود. وكان المبشرون بين هؤلاء الذين استخدموا هذا المال لتزويد 14 مدرسة هندية موجودة بـ 508 طلاب. وخلال خمس سنوات ارتفع عدد المدارس إلى إحدى وعشرين مدرسة، و800 طالب، واستمر تمويل هذه المساعي طوال العام 1873م.

ثم تبين أنَّ من بينِ ما كانت الحكومة تأملُه هو أن يعمد المعلمون والمبشرون الذين تموِّلهم إلى إقناع الهنود بالانتقال إلى محميات، ولأنهم لم يفعلوا ذلك، وبالأحرى عارضوا مسألة الإجلاء، فقد أثيرت احتجاجات متكررة من قبل هؤلاء الذين رغبوا في سرقة الأرض الهندية بصورة رسمية، وعلى سبيل المثال أجبرت ولاية جورجيا المبشرين على الخروج من منطقة شعب تشيروكي في عام 1838م، واعتقلت الذين

رفضوا المغادرة، وكان أحدهم الكاهن وور سيستر الذي حكمت عليه محكمة جورجيا بالسجن أربع سنوات مع الأشغال الشاقة؛ لدعمه قضية التشيروكي.

وفي عام 1824م أنشئ مكتب الشؤون الهندية ضمن وزارة الحربية (حوِّل إلى وزارة الشؤون الخارجية في عام 1843م)، وقد أعد تقارير سنوية تراقب محاولة تعليم الهنود. وبحلول عام 1836م، أدرج التقرير اثنتين وخمسين مدرسة فيها 1381 طالبًا، تركز على تعليم (الزراعة والتدبير المنزلي)، وبقي المبشرون المصدر الرئيسي لتجهيز هذه المؤسسات. وقد استمرت مساعي التنصير، وإيصال ثقافة البيض إلى الهنود، بحماسة حتى نهاية القرن التاسع عشر تقريبًا، ولكن الخيبة، وعدم الثقة التي تسببت بها سياسة إجلاء الهنود المطبقة بثبات، أوهنت المساعي التبشيرية. نتج من ذلك حالة غريبة، مع أنها حالة اعترفت بها لجان التحقيق الأمريكية الرسمية المتعددة؛ مثلًا بعد الحرب الأهلية قدَّمت لجنة السلام التي ضمت مندوبة الشؤون الهندية ناثانيل تايلر (Nathanial Taylor)، والجنرال ويليام شيرمان (William T.Sherman)، وآخرين، تقريرًا في عام 1867م أوضح مشكلة جوهرية، وهي أنه «لما لم يكن بالإمكان أن تُظهِر حكومة الولايات المتحدة- ضمن الشروط العامة للقانون وتشريعاته- رغبة في التعامل مع الهنود بكرم، فلا بد من الاعتراف بأن المعاملة الفعلية التي تلقاها الهنود كانت ظالمة وغير عادلة، بحيث تعجز الكلمات عن وصفها. أصدرت الحكومة إرشاداتها بأن الهنود لديهم حقوق يجب احترامها، ولكن عند التطاول على هذه الحقوق بسبب جشع الرجل الأبيض، فإن اليد التي يجب أن ترتفع للدفاع عنهم كانت جاهزة لمنح الدعم للمعتدي. إن تاريخ العلاقات الحكومية مع الهنود يحفل بسجل مشين من خرق المعاهدات والإخلال بالوعود» (Dippie, 1982, 60). ومهما كان رأي المرء في الادعاءات الأولية للبيانات، فإن سياسة الحكومة أرست سمة النفاق المتأصلة في السلوك الرسمي تجاه الهنود على مدى يزيد على مئات السنين.

من المفارقات أن المبشرين أنجزوا- من وجهة نظرهم الدينية- شيئًا متوازنًا ضمن هذه البيئة الفظيعة، وبمرور الوقت تزايد عدد الهنود الذين حددوا هويتهم على أنهم مسيحيون، لكن هذا فشل تمامًا بتعزيز حريتهم السياسية والاقتصادية، أو باندماجهم المطلق مع المجتمع الأبيض. ومع أخذ آمال أجيال المبشرين وأحلامهم كلها بالحسبان، يتساءل المرء: لماذا كان كل ذلك؟ ربما كان ذلك بسبب (أنه لم تكن مجموعة كبيرة من المجتمع الأبيض) تؤمن بأن المساعي التبشيرية سوف تنجح مع (هذه السلالة الوضيعة). وقد عبر عن هذا الأمر حينذاك أحد المبشرين كالآتي: «يبدو أن هناك أسطورة خرافية متجذرة، مفادها أن الهنود مكتوب عليهم في الواقع كما لو أنه قدر محتوم، بألا يكونوا مسيحيين، بل كتب عليهم الفناء تدريجيًّا حتى ينقرضوا». كانت الأسطورة تخدم السياسات، فقد ذكر وزير حربية الرئيس واشنطن، هنري نوكس (Henry Knox)، بصراحة أن وجهة النظر التي وجدت أن تحضير الهنود أمر (محال) ربما كانت ملائمة أكثر مما هي عادلة. وقد رأينا ذلك في قضية أرض تشيروكي في جورجيا؛ فقد كانت قدرة الهنود على العيش بأسلوب (متحضر) لا صلة لها بالموضوع. والحقيقة هي أن أغلب المجتمع الأبيض، الذين يعيشون منفصلين عن العمليات التاريخية التي أثَّرت في الهنود، لم ينسوا الصورة النمطية للهنود على أنهم بربريون، حتى إن وسائل إعلامهم ورجال السياسة لم تبرئهم من الخطأ، ولم تُعمَّم التقارير الرسمية المضادة لذلك، ومن المحتمل جدًّا أن الغالبية قد تكون غير مكترثة بحقيقة أن الهمجيين يتحولون إلى مسيحيين حتى لو علمت بذلك.

أما بالنسبة إلى المهتمين بالأمر، بغض النظر عن قلة من المبشرين والعاملين في الحقل الإنساني، فقد رأوا أن على الهنود أن يظلوا همجيين؛ لأنه سيكون من الصعب التخلص من مواطن تم استيعابه وتمثله في المجتمع.

الخلاصة

وفق ما قال المؤرخ جورج تينكر (George E Tinker) فقد انتشر اتجاه خفي قوي بين المستعمرين الذين استوطنوا لاحقًا منطقة الهنود بالإضافة إلى عناصر الجيش الأمريكي يفضِّل تصفية الهنود جسديًّا (Tinker, 1993, 98). إن وصف الهنود بأنهم دمويون ومتوحشون، الصادر عن الصحافة والسياسيين في ذلك الحين، الذي انتشر ضمن بيئة نزعة العزلة المحلية والافتقار إلى المعرفة السياقية الدقيقة، هو الذي ولَّد معتقدًا جماعيًّا بين العامة عزَّز عملية الإبادة الجسدية تلك. أما أسباب عدم حدوث ذلك بسرعة وعلنًا فهي: 1) وجود مساحات شاسعة من الأراضي خارج الحدود يمكن نقل السكان الأصليين إليها وحشرهم فيها، وهذا أفضى إلى ظهور سياسة المحميات، 2) وجود أقلية قالت منذ بداية الاستيطان أنه يمكن علاج (المشكلة الهندية) من خلال عملية التنصير بدلًا من الإبادة الجسدية.

في معظم الحالات كان هؤلاء الأفراد جادين في مساعيهم لإجبار الهنود على أن يصبحوا من البيض، فعلى سبيل المثال روى تينكر في كتابه **الحملة التبشيرية** Missionary Conquest، قصة هنري بينجامين ويبل (Henry Benjamin Whipple)، الذي اُختير ليكون المطران الأسقفي في مينيسوتا في عام 1859م. كان ويبل «رجلًا ذا أخلاق عالية، ولا يُضمر إلا النيات الحسنة»، ومع ذلك فإن مسعاه الصادق لإدماج هنود السيوكس (Sioux) في المجتمع الأمريكي؛ بتعليمهم كيف يصبحون مزارعين، ومدافعين عن الملكية الخاصة، ومسيحيين صالحين، أدى إلى بقائهم مضطهدين خارجين عن العرف الاجتماعي». وعلى الرغم من ذلك كان ويبل مقتنعًا بأنه من دون الاندماج فإن السيوكس والهنود الأمريكيين الآخرين سيكون مصيرهم الاندثار. كانت الحقيقة، كما أوضحها تينكر، أن هذه العملية (الإنسانية والعادلة) وصلت إلى كونها عملية إبادة ثقافية.

في الوقت ذاته لم يكن أحد- بالطبع- يفكر في الأمر بتلك الطريقة؛ إذًا، أين هي الخطيئة؟ أهي في المقصد الذي ينجم عنه الفعل، أم فقط في نتائجه؟

كان دائمًا الهدف الجوهري للمستوطنين البيض والحكومة التي تمثلهم هو الاستيلاء على الأرض التي كان يقيم فيها عديد من القبائل الهندية الأمريكية، وهي غايةٌ لم يستطع المبشرون المتحضرون التصدي لها بنجاح، وفي أكثر الأحيان قبلوا بها وكأنها أمر محتوم. ووافق معظمهم على أن مصادرة الأرض الهندية كان يجب أن تكون متساوية مع تقدم الحضارة، وما دام أن المساعي التبشيرية في الاندماج لم تقف في طريق سياسة إجلاء الهنود، فإن الحكومة الأمريكية سمحت لها بالاستمرار. وعندما كان المبشرون يشكِّلون عقبة، كما في حال التشيروكيين، كانوا بكل بساطة يبعدون عن المشهد.

في خضم ذلك كله كان إبداء الرأي قليلًا، والاحتجاجات أقل من قبل أغلب الأمريكيين، فبسبب انغلاقهم ضمن عزلتهم المحلية، فإنهم لم يفكروا كثيرًا في مصير الهنود. وفي الحقيقة فإن مسألة اندثار الهنود جسديًّا أو ثقافيًّا كانت تتمثل في كيفية اختيار الهنود للرد على (حتمية) زحف الحضارة والحتمية التي قدَّرها الله، وقد تكرر هذا السيناريو المدروس مرارًا وتكرارًا على مر التاريخ؛ حيث تقرر الضحايا الطريقة التي يُبادون بموجبها، وغالبًا ما يكون الخيار ذاته: إما الإبادة الجسدية أو الإبادة الثقافية.